المحاضرة الخامسة: تعمير قرطاج ومحيطها: تنظيم المدينة ووظائفها/ مقياس التعمير البشري في شمال إفريقيا

ليست لدينا مصادر مباشره خاصه بالتواجد الفي فينيقي في غربي البحر المتوسط لا سيما تلك المتعلقة ببلاد المغرب فيما عدا ما المؤرخون الاغريق والرومان الذي وصلتنا وقد تركزت معظمها حول الصراع الاغريقي القرطاجي في صقليه والصراع الروماني القرطاجي حول السيادة على الحوض الغربي للبحر المتوسط كذلك يمكن ان نلتقي معلوماتنا ايضا من النقوش التي عثر عليها في مواقع المدن الفينيقية القرطاجية في غربي البحر المتوسط وان كانت هذه الأخيرة لا تفي بالمطلوب ذلك لان معظمها كان متعلقا بالناحية الدينية ولا يتعدى ذكر اسماء الاشخاص والاماكن ولذلك فهي ضعيفة الجانب فيما عدا البعض منها مثل نقش رحله حنون الذي تعرض لأحداث تاريخيه هامه وقد وصلت الينا عن طريق ترجمتها للإغريقية

وعلى هذا الاساس فإن النقوش لا تفيدنا في تسليط الاضواء على المواضيع الاجتماعية والسياسية الا بالقدر اليسير بالإضافة الى ذلك لدينا المصادر المادية التي تتلخص في المواد غير قابله للفناء والتي بقيت في اماكن المدن الفينيقية البونية في بلاد المغرب القديم

ويأتي على راس هذه المواد الفخاريات وفي هذا الصدد تعود الفخاريات معبد ثاني بقرطاجة الطبقة الاولى حسب راي هاردن الى حوالي القرن الثامن قبل الميلاد ويمكن ان يكون الفينيقيون قد استقروا بغربي البحر المتوسط قبل هذا التاريخ بكثير غير انهم في بداية الامر كانوا غير مستقرين ولذلك لم نعثر لهم على بقايا اثريه تدل على تواجدهم وبالتالي تعاصر المصادر الكتابية اذ انه لا يعقل ان يؤسس الفينيقيون مراكز والمدن المستقرة منذ المهلة الاولى التي حل فيها ببلاد المغرب القديم بل لابد من ارتياد هذه الاماكن ومعاينه مدى صلاحيتها الاستقرار كذلك يراعي في تأسيس المراكز والمستوطنات الباكرة مدى ملائمتها للتجارة والاتصال بسكان المناطق القريبة منها

1- **الوضع الطبوغرافي:** بدأت الابحاث التي تناولت تحديد موقع مدينه قرطاج في منتصف القرن الفارط تقريبا وكانت في بداية الامر قد اعتمدت على تحليل النصوص التي تركها المؤرخون بالإضافة الى مواقع البقاء الأثرية التي كان يعثر عليها من حين لأخر وقد تتابعت الحفريات بعد ذلك في موقع قرطاج حتى وقت لاحق.

والجدير بالذكر انه في معظم كامل الحفريات السابقة كان يركز على تحديد موقع قرطاج وما هو المدى الذي كانت تمتد عليه اسوارها والاحياء السكنية التي كانت تتكون منها كذلك مقابر الدفن والقلاع والموانئ الى غير ذلك من المؤسسات التي كانت تتكون منها المدينة عبر تاريخها.

وفي هذا الصدد اعتمد الباحثون الاثريون على تحليل النصوص القديمة التي اوردها المؤرخون الاغريق مثل بوليبيوس وابيانوس واسترابوان وغيرهم اثناء الحرب البونية الأخيرة بانها تقع على شاطئ خليج مكونه شبه جزيره محاطه بالماء

من ثلاث جهات ويحدها من ناحيه اليابسة برزخ بلغ عرضه 25 ستادا اي حوالي 4440 متر يربطها بالقاره وغير بعيد من البرزخ المذكور من الناحية الغربية توجد أوتيكا بينما تقع تونس في الجانب الاخر على شاطئ البحيرة

ويذكر في مكان اخر بان البرزخ الذي يربط قرطاجة بالقاره صعب المسالك فيما عدا بعد الطرق التي نحتها الانسان يستنتج من هذين النصين بان قرطاجة كانت محصنه طبيعيا من جميع الجهات كما انها كانت تمتد في شكل مثلث قاعدته البرزخ الذي يربطها باليابسة وقمته تقع في راس قرطاجة سيدي بوسعيد حاليا الذي يرتفع حوالي 130 متر على مستوى سطح البحر.

2- المؤسسات الاستراتيجية في المدينة:

أ- الاسوار

يبدو من الصعب تحديد امتداد اسوار مدينه قرطاج بالكيفية التي اشرنا اليها ما دامت معالمها الأثرية لم تحدد بعد وقد اشير الى هذه الاسوار في الكتابات القديمة لاسيما منذ القرن الرابع قبل الميلاد ويشير المؤرخون من جهته الى ان طول سور قرطاج كان قد بلغ حوالي 360 استادا [1]اي ما يعادل حوالي 64 كيلو متر وهذا مبالغ فيه ويمكن ان يكون الرقم الصحيح او القريب من الواقع هو الذي قدمه المؤرخ الروماني تيتيوس ليفيوس والذي يقدر بحوالي 32 كلم ويذكر ابيانوس من جهته بان قرطاج كانت جميعها محاطه بصور بسيط فيما عدا من ناحيه البرزخ فانه يتكون من ثلاث اسوار متعاقبة وقد بلغ ارتفاع كل واحد من هذه الاصوات الثلاثة 13.32 متر بقطع النظر عن القلاع والشرفات التي تتخلله والتي تبعد الواحدة منها عن التي تليها بحوالي 59 متر وتعتبر هذه الاسوار دفاعيه من اهم المنشآت من مدينه قرطاج فهي تحيط بالمدينة وتتقاطع عند البرزخ الضيق المشار اليه لتترك فتحه للدخول او الخروج من المدينة.

ومن جهة اخرى يذكر ابيانوس ايضا ان عرض الصورة الاول كان يبلغ حوالي 8.88 متر ويوجد من الناحية الداخلية منه هو فراغ بني بشكل طابقين خصص الطابق الاول منها لإيواء 300 فيل بجادها ومعاشها اما الطابق الثانية الذي يوصل اليه عن طريق ممر يصعد من الطابق الاول فقد وجد به هي اسطبل كان يتسع لحوالي 4000 حصان بما في ذلك مخازن العلف والشعر بالإضافة الى ثكنات عسكريه تأوي حوالي 20,000 من المشاة و 4000 من الفرسان .

وكان السور الثاني عباره عن خندق عميق بلغ عرضه حوالي 20 مترا اما السور الثالث فكان عباره عن اوتاد ضخمه فقد كشفت ابحاث الجنرال دوفال سنه 1945 عن وجود الخندق والسور بالأوتاد وذلك بواسطه التصوير الجوي

[1] - ستاد مقياس روماني قديم يستعمل لقياس المسافات

الذي استعان به هذا الاثري في ابحاثه العلمية واعتمادا على ما قدمه الجنرال دوفال ذهب من بعده الباحث الاثري رينير الى ان هذه التحصينات التي كانت تحيط بقرطاجة حديثة العهد وانها لم تتجاوز فتره الحصار الروماني لمدينه قرطاجة التي شعر فيها القرطاجيون بالخطر الذي يهدد مدينتهم فعمدوا الى تحصينها من جميع الجهات ومن الصعب علينا تحديد تاريخ الاسوار الثلاثة التي تحيط ببناء مدينه قرطاج غير اننا نلاحظ بان القرطاجيين لم يستعملوا الفيلة في حروبهم الا خلال القرن الثالث قبل الميلاد وعلى هذا الاساس يمكن ان يكون بناء الصور البسيط قد تم انجازه قبل هذه الفترة اما المنشآت الدفاعية التي وجدت به فلا يستبعد ان تكون عائده الى هذه الفترة.

والملاحظة التي يمكن ان نسجلها هنا هو ان تحصينات مدينه قرطاج كانت قد اطالت عمرها وجعلتها تقف في وجه كل الطامعين الذين حاولوا الاستيلاء عليها الا انهم فشلوا في ذلك وقد فقد الرومان اثناء الحرب البونية الثالثة الامل في الاستيلاء على المدينة عنوه لولا طول مدينه مده الحصار الذي جعل قرطاج تفقد كل شيء وتنقاد صاغرة لنزوات القائد الروماني سبيو أميليان.

ب- **الميناء المزدوجة:**

تطور نظام الميناء الفينيقي بتطور البحرية الفينيقية ومدى احتياجاتها فقد رسم الفينيقيون في بداية الامر على شواطئ رملية طبيعية قليله الانحدار يسهل جر قواربهم منها واليها وفقا لإمكانيتهم البدائية ثم تطور نظام الميناء بعد ذلك فاصبح يختار له الخلجان الطبيعية المحاذية للرؤوس التي تتكسر عليها الامواج دون ان تصاب سفنهم وقواربهم باي ضرر وهنا جاءت فكره الميناء الطبيعي الذي عم استعماله معظم المستوطنات الفينيقية في غربي البحر المتوسط والوطن للام وقد استفاد الفينيقيون في بداية الامر من معطيات الطبيعة فاستغلوا وجود الجزر الصخرية القريبة من الشاطئ وكذلك البحيرات الشاطئية ثم زودوها بالأرصفة فأصبحت تمثل الميناء الطبيعي البسيط والمزدوج

ولم تتوقف عبقريه الفينيقيين في غربي البحر المتوسط عند هذا الحد بالعمد الى التحكم في الطبيعة وأنشأوا ما يسمى بالميناء الاصطناعية وخير مثال على ذلك ما وجدت اثاره في موقع مدينه قرطاجة والمعروف باسم القاطون[2] والجدير بالذكر ان المؤرخين للقدماء توقفوا كثيرا عند القانون فراحوا يصفون جمال هندسته وضخامة منشاته الاصطناعية وبناء على هذا الوصف عمد الاثريون فيما بعد الى مسح موقع الميناء المزدوج أثريا بغيه تحديد.

ومن اشهر المؤرخين القدماء الذين وصفوا ميناء القاطون ابيانوس حيث يذكر هذا المؤرخ في الاعتماد الى ما ذكر بوليبيوس بان المرفأين متصلين ببعضهما بحيث ان السفينة تستطيع ان تمر من احدهما الى الاخر بواسطة قناة بلغ عرضها حوالي 70 قدما 20.72 متر ويوجد للمرفأين مدخل واحد بلغ عرضه هو الاخر 70 قدما يمكن غلقه

---

[2]- تسمية سامية من فعل قط أي نحت وهي تشمل المرفأين التجاري والبحري في مدينة قرطاجة

بسلاسل حديديه وقد كان المرفأ الاول المستطيل مخصصا للسفن التجارية بينما خصص المرفأ الثاني المستدير الى السفن الحربية ولذلك عرفه بالمرفأ الحربي.

توجد في وسطها المرفأ الحربي جزيرة الاميرالية وقد كان هذا المرفأ الاخير محاطا من الناحية الداخلية او غرف تكفي مع غرف الجزيرة الداخلية لإيواء 220 سفينه ويقوم امام كل ترسانة او غرفه عمودان ايونيان يحجبان الرؤية من الخارج كذلك وجد فوق الجزيرة الداخلية برجا للمراقبة بحيث يستطيع الاميرال ان يراقب ما يجري عرض البحر بينما هؤلاء الذين يقتربون من البحر لا يستطيعون ان يروا ما يجري داخل المرفأ الحربي كما توجد ابواب يمر منها تجار سفن من المرفأ التجاري الى المدينة دون ان يعبروا المرفأ الحربي الذي كان يتصل هو الاخر باليابسة بواسطه جزر وقد اشار المؤرخ والجغرافي استرابون بدوره الى وجود جزيره الامبرالية داخل المرفأ الحربي.

ومن جهة اخرى نقل ابيان اعجاب مجلس الشيوخ الروماني ببناء قرطاجة ورغبتهم في الاستيلاء عليها فان كنتم تنتظرون فرصتكم فانتم بحاجه الى هذه المدينة الى المرفأ الكبير وترساناته.

هذا ما تذكره بعض الكتابات القديمة عن القاطون القرطاجي.

ج- **الاحياء** : تؤكد الكتابات التاريخية بالإضافة الى نتائج الابحاث الأثرية بان مدينة قرطاج كانت مقسمه الى احياء سكنيه متميزة حسب الطبقات الاجتماعية التي كان يتكون منها المجتمع القرطاجي والاحياء المشار اليها هي حي بيرصة[3] وسلامبو ثم حي ميجارا وحتى يومنا هذا فان التقنيات الاثرية لم تتوصل الى تحديد هذه الاحياء بكيفية واضحه وكل الذي عثر عليه هو عباره عن عده مقابر منتشرة بالإضافة الى معابد مقامه في الهواء الطلقة مثل معبد الاله تانيت اتوفاه بسلامبو ومعبد الاله اشمون بقلعه بريصا وقد اكتشفت الفرنسية الاثرية مؤخرا بقيادة لانسال حيا سكانيا بأكمله حول قلعه بيرسا يعود تاريخه الى حوالي القرن الثالث قبل الميلاد.

وقد كان حي بيرسا محاطا بصور قوي وفي الناحية الجنوبية منه توجد المقبرة العامة وكانت هناك ثلاثة شوارع تنحدر من نفس الحيل تربطه بالساحة العامة والميناء المزدوج وعلى جوانب هذه الشوارع ترتفع الأبنية الشاهقة التي وصل ارتفاعها الى سته طوابق وفقا لطراز المعماري الذي كان شائعا حين ذاك في فينيقيا وفي موتيا بجنوبي صقلية

وكانت الأبنية المشار اليها مخصصه لسكنى الطبقة الشعبية التي تتكون من الصناع والتجار والحرفيين وفي اسفل الحي المذكور توجد الساحة العمومية التي هي بمثابه الاجورا في المدن الاغريقية والقروم عند الرومان والسوق في وقتنا الحالي وحول الساحة العامة كانت توجد المباني الرسمية مثل مبنى مجلس الشيوخ والحكام ودار الثقافة.

---

[3] - تعني تسمية بيرصة في اللغة اليونانية جلد الثور وإطلاقها هنا يمكن أن يكون تحريف للكلمة بورصة الفينيقية والتي تعني القلعة والتي وجدت مكتوبة على وجه العملة القرطاجية.

ومن جهة اخرى يستنتج من بقايا الحفريات التي تواصلت منذ سنه 1944 في سلامبو بان هذا الحي يعد من اقدم الجهات في مدينه قرطاجة وذلك بالاعتماد على بقايا قبور معبد الاله ثانيتا العائد الى منتصف القرن الثامن قبل الميلاد ويستفادوا من البقايا الأثرية التي وجدت في هذا الحي بانه كان ذا طابع دين اقتصادي بأتم معنى الكلمة حيث عثر فيها على معبد التوفيتTophet [4]الذي لا يبعد عن القاطون الا بحوالي 50 متر والذي وجدت به عده اواني فخاريه تحتوي على رماد الضحايا التي قدمت قرابين للإلهة بعل حمون وللالهة تانيث بني بعل طوال تاريخ قرطاجة ابتداء من القرن الثامن قبل الميلاد وحتى وقت تهديمها سنه 146 قبل الميلاد

ولا نترك احياء مدينه قرطاجة دون ان نشير الى حي ميغارا [5]الذي اشار اليه ابيان بقوله:" بانه حي واسع لينتشر فيه الحدائق والبساتين وهو داخل السور الكبير يحيط بقلعه بيرصة"

يستفاد من هذا النص بان حي مغاره كان مخصصا لسكن الاغنياء واعيان المدينة وقد كانت مظاهره تنم على معاني الترف التي كانت تتمتع بها ال الطبقة الأرسقراطية القرطاجية وغالبا ما يوصف هذا الحي بانه يوجد في شمال المدينة.

وحتى الان لازال مكانه غامضا لان هناك من الباحثين من يجعله خارج سور قرطاج وبالضبط في رأس قمرت الحالي في اقصى الشمال.

[4] - تسمية يمكن أن تكون سامية تعني معبد في الهواء الطلق تقدم فيه الأضاحي البشرية لاسيما من الأطفال الصغار

[5] - كلمة ميغارا سامية الأصل وهي تحريف لكلمة مغارة والتي تعني الكهف أو السرداب الصغير الذي غالبا ما يوجد تحت الجارة الضخمة.